مجلة الآداب، م٢٦ ، ع٣ ، ص ص ٢٤٥- ٢٥٦ ، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٤م/١٤٣٥هـ)

حريقا المسجد النبوي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م - ٨٨٦ هـ/١٤٨١م)

عبير حسين الطويهر

محاضرة بقسم العلوم الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة طيبة

المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية

الكلمات المفتاحية: المسجد النبوي، الحوادث، التاريخ الإسلامي.

ملخص البحث. تعد حادثة حريق المسجد النبوي من الحوادث البارزة في تاريخنا الإسلامي، و ذلك لا يعود فقط لارتباطنا الوجداني بصفتنا مسلمين بهذا المسجد بل لأن حادثة الحريق تلك حدثت في فترة إسلامية عصيبة، فالواقع أن الحوادث التي حدثت بين عامي (٦٥٤ – ٦٥٦ هـ) تركت انطباعاً يمكن ملاحظته بسهولة لدى المؤرخين المسلمين أمثال ابن الكثير و أبو شامة المقدسي، فغرَق بغداد ثم ظهور نار الحجاز، و بعد ذلك بفترة بسيطة حريق المسجد النبوي، فسقوط بغداد بيد المغول، جعل المؤرخين يربطون ذلك بيوم القيامة. أما الحريق الثاني ٨٨٦ هـ فعلى الرغم من أنه لم يكن بفداحة الحريق الأول و لكن إذا قارنا بين المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون قبل الحريق بالمصادر التي اعتمدوا عليها بعده في المدينة المنورة ندرك أن الحريق الثاني سبب خسائر علمية كبيرة فقدنا على إثره العديد من الكنوز التي كانت بلا شك ستضيف لنا الكثير.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على إمام المرسلين وسيد الأولين و الآخرين محمد الأمين وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين...أما بعد

فيحتل المسجد النبوي مكانة عظيمة في نفوس المسلمين قاطبة، فهو ثاني المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها. و يتوافد إليه المسلمون على مدار العام من شتى أقطار الأرض.

وقد كان المسجد النبوي يقوم بدور علمي بارز تمثل في الحلقات العلمية التي تعقد فيه، و التي تكثر في مواسم الحج، وفي شهر رمضان المبارك، حيث يكثر زوار الحرم النبوي في هذه المواسم.

وقد قام المسجد النبوي كذلك بأدوار سياسية، حيث كان مكاناً لاستقبال الرسل الذين يفدون على الرسول ﷺ، ولعقد ألوية جيوش و سرايا المجاهدين، ولاجتماع المسلمين بقائدهم عليه الصلاة و السلام. و لذلك فإن

لهذا المسجد مكانة سامية لدى المسلمين، وكانت الأحداث التي تتصل بالمسجد النبوي هي موضع اهتمام العالم الاسلامي.

وبناءً على ذلك فإن حوادث الحريق التي تعرض لها المسجد النبوي في العصر المملوكي قد تركت أثراً بالغاً في نفوس المسلمين عامة، و قد احترق المسجد النبوي مرتين في ذلك العصر: المرة الأولى كانت عام ٦٥٤هـ، و المرة الثانية عام ٨٨٦ هـ.(الشهري، ٢٠٠١: ١٨٥- ٣١٩).

حريق المسجد النبوي الأول:

ذكر معظم المؤرخين أن حادثة حريق المسجد النبوي الأولى وقعت في أول ليلة من شهر رمضان عام ٦٥٤هـ /١٢٥٦م (المطري، ٢٠٠٥: ٨٣) و (الذهبي، ١٩٨٧: ٢٤/٤) و (ابن فرحون، ١٩٩٦: ١٩٣).

و يضيف أبو شامة المقدسي أنها كانت ليلة الجمعة (المقدسي، ٢٠٠٢: ٢٩٧) و قد بدأ الحريق في أول الليل (الفيروزآبادي، ٢٠٠٢: ٤٥١/٢).

و على الرغم من أن المسجد تعرض في عدة فترات سابقة لحوادث مؤلمة من أمثال ما حدث عام ٤٠٧ هـ من سقوط حائط أمام قبر الرسول ﷺ، أو ما تعرض له من تهدم شيء منه في زلزال عام ٥١٥هـ، (الشهري، ٢٠٠١: ١٧٨) إلا أن تلك الحوادث لا تقارن بحال من الأحوال بحادثتي حريق المسجد النبوي عامي ٦٥٤- ٨٨٦هـ، و لعل الحادثة الأولى عام ٦٥٤هـ كانت أكبر أثراً في نفوس المسلمين في مختلف الأقطار الإسلامية؛ لأن تلك الحادثة كانت الحادثة الأولى في تاريخ المسجد النبوي، كما أن هذه الحادثة كانت متزامنة مع خروج نار الحجاز(١)، فدعمت وجهة النظر التي سادت في تلك الفترة بالاعتقاد بظهور إحدى علامات يوم القيامة المخبر عنها الرسول ﷺ، و من أصحاب هذا الرأي المؤرخ أبو شامة المقدسي الذي قال في ذلك "وعد ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات " (المقدسي، ٢٠٠٢: ٢٩٨)، بالإضافة إلى عدة نكبات أخرى توالت على الأمة الإسلامية كغرق بغداد ثم سقوطها بيد المغول عام ٦٥٦هـ، و في هذه النكبات نظم أبو شامة المقدسي:

بعد ست من المئتين و خمسين لدى أربع جرى في العـام
نار أرض الحجـاز مع حرق المسجد مع غريق دار السلام
ثم أخذ التتـار بغـداد في أول عام من بعد ذاك العـام
لم يفن أهلها و للكفـر أعوان عليهم يا ضيعة الإســلام
و انقضت دولة الخلافة منها صار مستعصم بغير اعتصام
رب سلم و صن و عاف بقايا المدن يا ذا الجلال و الإكرام
فحناناً على الحجاز ومصـر وسلام على بلاد الشـام

سبب الحريق الأول:

و السبب في هذا الحريق هو أن أحد خُدام المسجد النبوي و يدعى أبو بكر بن أوحد دخل إلى حاصل المسجد(٢) الذي يقع في الجانب الغربي من المسجد

---

(١) نار الحجاز: نار المدينة أو الحرة كانت نتيجة ثورة بركان عام ٦٥٤هـ، وقد أصابت ثورته الذعر في أرجاء الدولة الإسلامية، فقد نسج حولها العديد من الأساطير و الخرافات، وقد امتدت الحمم البركانية حتى المسجد النبوي (السمهودي، ٢٠٠٦: ١١٣/١).

(٢) الحاصل: هو ما بقي من الشيء، وهو موضع يجمع فيه الزيت و البسط و القناديل.

"لاستخراج قناديل لمنائر المسجد، فاستخرج منها ما احتاج إليه، ثم ترك الضوء الذي كان في يده على قفص من أقفاص القناديل و فيه مشاق فاشتعل فيه" (السمهودي، ٢٠٠٦: ١٥٠/٢).

و يبدو أن حاصل المسجد يحوي الكثير من الزيت مما أدى إلى سرعة اشتعال النار، و قد حاول أبو بكر أن يطفئ النار، و لكنه لم يستطع ذلك فسرعان ما امتدت النار إلى سقف المسجد، و احترق أبو بكر و مات، كما احترق حاصل المسجد بكل ما كان يحويه (المقدسي، ٢٠٠٢: ١٩٧) و(المطري، ٢٨: ٢٠٠٥).

واحترقت سقوف المسجد، و وقعت بعض أساطينه، و امتدت النار إلى الحجرة الشريفة، فاحترق سقفها و سقط في داخل الحجرة (اليافعي، ١٩٩٧: ١٠٣/٤) و (السمهودي، ٢٠٠٦: ١٥٢/٢).

ولما علم أهل المدينة بهذا الحريق اجتمعوا في المسجد وقاموا بمحاولة يائسة لإطفاء الحريق أو للحد من انتشاره، و أسرع أمير المدينة منيف بن شيحه إلى المسجد وساهم في دعم تلك المحاولات لإطفاء النار، و لكن النار لم تطفئ إلا وقد أحرقت معظم محتويات المسجد النبوي " من المنبر الشريف و الأبواب و الخزائن و الشبابيك و المقاصير(٣) و الصناديق و ما اشتملت عليه من كتب و كسوة الحجرة "(السمهودي، ٢٠٠٦: ١٥١/٢). و في صباح اليوم التالي و هو يوم الجمعة عزل أهل المدينة موضعاً للصلاة، فصلوا فيه.(الفيروزآبادي، ٢٠٠٢: ٤٥١/٢) و (عبد الباسط بدر، ١٩٩٧: ٢٣٥/٢).

و قد أمر الظاهر بيبرس(٤) - بعد توليه السلطنة و ضبط الأمور في مصر و الشام – بتولية جمال الدين محسن الصالحي (٥) في منصب شيخ الخدام (السخاوي، ٥: ٢٠٠٩/٥١٠)، ويبدو أن ذلك يعود إلى أن الظاهر بيبرس شعر أن الكارثة التي حلت بالحرم النبوي كانت بسبب إهمال خدام المسجد النبوي و شيخهم.

ويشير المؤرخون إلى أن أهل المدينة لم يزيلوا آثار الحريق من المسجد، و إنما اكتفوا بنقلها إلى مؤخرة المسجد، حتى لا تعيق المصلين، إلى أن يصل إليهم أمر الخليفة العباسي المستعصم بالله بإزالتها، (المطري، ٢٠٠٥: ٨٣- ٨٤) و في ذلك يقول الفيروز آبادي: "فتركوا الردم على ما كان عليه، ولم يجسر أحد على

---

(٣) المقاصير: جمع مقصورة، و هي حاجز خشبي يكون بأعمدة وقضبان خشبية مخروطة بصناعة لطيفة. (محمد دهمان، ١٤٣: ١٩٩٠).

(٤) الظاهر بيبرس: هو الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي، ولد بأرض القبجاق عام ٦٢٥هـ، و أسر فبيع في سيواس، ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة، كان أتابك العساكر بمصر في أيام الملك المظفر قطز، و قاتل معه المغول في معركة عين جالوت، ثم اتفق مع الأمراء على قتل قطز فقتلوه، وتولى سلطنة مصر و الشام عام ٦٥٨هـ. (الزركلي، ٢٠٠٢: ٧٩/٢).

(٥) الصالحي: محسن جمال الدين النجمي الطواشي، له دور كبير في الصراع مع الصليبيين، و عينه الظاهر بيبرس شيخ الخدام بالمسجد النبوي مات عام ٦٦٨هـ. (ابن الوردي، ١٩٩٦: ١٧٨/٢) و(السخاوي، ٢٠٠٩: ٥١٠/٥).

التعرض لهذه العظيمة التي دون مرامها تزل الأقدام "(الفيروزآبادي، ٢٠٠٢: ٤٥٢/٢).

و قد انتقد السمهودي في أصل كتابه المحترق المسمى " الوفاء بما يجب لحضرة المصطفى " ترك آثار الحريق دون إزالة، فهو يقول: " و قد كنت في تعجب عظيم من أهل ذلك الزمان في تركهم ذلك، و ألفت كتاباً... بيّنت فيه أن الواجب في سلوك الأدب مع هذا النبي العظيم و القيام بما وجب فيه على الأمة من تعظيمه و تعظيم قبره الشريف هو إزالة ذلك عنه و قمه من حجرته الشريفة " (السمهودي، ٢: ١٥٢/٢٠٠٦)، و لكنه عاد، فتراجع عن هذا الرأي بعد حادثة حريق المسجد الثانية التي كان السمهودي معاصراً لها، فقال في ذلك: " فلما نقبوا الجدار الظاهر شاهدت بين الجدارين في الفضاء الذي خلف الحجرة أمراً مهولاً من الهدم الذي خص ذلك الموضع، فإنه كما سيأتي كان فيه نحو القامة، فعلمت أن أهل ذلك الزمان لم يتركوه إلا لعلمهم بأن إزالته لا تتأتى إلا بانتهاك الحرمة، فتوقفوا في ذلك فجزاهم الله تعالى خيراً " (السمهودي، ٢: ١٥٣/٢٠٠٦).

و يبدو أنه قد اجتمعت عدة أسباب أدت إلى السيطرة على ذلك الحريق، و بالتالي أدى إلى خسائر فادحة، و يمكن إجمال تلك الأسباب فيما يلي:

١- ارتفاع سقف المسجد النبوي، فقد كان يبلغ حوالي خمسة و عشرين ذراعاً.

٢- قلة الإمكانيات لدى أهل المدينة.

٣- و جود كميات من الزيت في حاصل المسجد.

و أرجع عدد من المؤرخين وقوع هذا الحريق إلى عقوبة من الله سبحانه و تعالى على المعاصي التي تقترف في مدينة الرسول ﷺ، ومن أبرز هؤلاء القطب القسطلاني، وهو مؤرخ معاصر لحادثة الحريق تلك، و قد ألف فيها كتاباً سماه " عروة الثوثيق في النار والحريق " (السمهودي، ٢: ١٥٠/٢٠٠٦) و(حاجي خليفة، د.ت: ١١٣٣/٢)، و يذكر القسطلاني أن لله سبحانه وتعالى حكمة من هذا الحريق، ويعتقد أن لهذا الحريق سببين:

١- السبب الأول هو تلك الزخارف و النقوش التي زينت جدران المسجد النبوي، و التي يعتبرها كثير من العلماء بدعة منكرة، أدت إلى طامة كبرى حلت بالمسجد النبوي، ينظر إليها القسطلاني على أنها عقوبة من الله على هذا الذنب (السمهودي، ٢: ١٥١/٢٠٠٦) و(الشهري، ٢٠٠١: ٢٠٢)، و يؤيد القطب القسطلاني في هذا الرأي ابن الوردي(ابن الوردي، ١٩٩٦: ١٨٩/٢) الذي يقول في ذلك:

و النار أيضاً من جنود نبينا — لم تأت إلا بالذي يختار

متغلبون يزخرفون بسحتهم — حرم النبي فطهرته النار

ويقول **الأقشهري** أيضاً قريباً من هذا، ورداً على قصيدة ليحيى الصرصري(٦)(السخاوي، ٥: ٥٣٥/٢٠٠٩):

أتتنا أحاديث الحجاز عشيةً — إذ الزخاريف التي فيه تحرقُ

شهدت بأن الله لا رب غيره — و أن الذي قال الرسول مُصدق

روينا صحيحاً أنه قال بعده — يزخرف بيـت الله ثم يُزّوق

---

(٦) يحيى الصرصري: يحيى بن يوسف الأنصاري الصرصري، شاعر من أهل صرصر (قرب بغداد) سكن مدينة بغداد، قتله المغول عندما دخلوا بغداد عام ٦٥٦ هـ /١٢٥٧م.(الزركلي، ٨: ١٧٧/٢٠٠٢).

و أن بيوت الله تُرفعُ أرضُها إلى جنّةِ الأوى و فيها تُخلّقُ
و أن الذي حقٌ يدوم بقاؤُهُ و أن الذي زورٌ فبالنار يُحرقُ

٢- و يورد القطب القسطلاني حكمة أخرى لهذا الحريق، وهو أنه بعد حدوث نار الحرة في شعبان من العام ذاته – عام ٦٥٤هـ - و توجه عدد من أهل المدينة إلى مسجد النبي ﷺ، و توقف الحمم البركانية عند الوصول إلى الحرم، " ربما خطر ببال العوام من أن حبس النار عنهم ببركة الجوار موجب لحبسها عنهم في الآخرة"(السمهودي، ٢: ٢٠٠٦/١٥١).

و من ذلك ما قال سيف الدين علي بن عمر بن قزل(٧) يخاطب النبي عليه الصلاة و السلام في أمر حادثة نار الحجاز(ابن الوردي، ١٩٩٦: ٢/١٨٩):

و أصبح وجه الشمس كالليل كاسفاً و بدر الدجى في ظلمة ليس ينجلي
و أبدت من الآيات كل عجيبة و زلزلت الأرضون أي تزلزل
جزعت فقام الناس حولي و أقبلوا يقولون لا تهلك أسى و تحمل
طفى النار نور من ضريحك ساطع فعادت سلاماً لا تضر بمصطلي

ويرى فريق آخر من المؤرخين أن حريق المسجد النبوي كان بسبب غلو بعض الشيعة الإمامية، ووُجِد بعد الحريق بيتان على جدران المسجد هما(المقدسي، ٢٠٠٢: ٢٩٨):

لم يحترق حرم النبي لريبة يُخشى عليه و ما به من عارُ
لكنما أيدي الروافض لامست ذاك الجناب فطهرته النـارُ

وقال معين الدين بن تولوا المغربي(٨) (الفيروزآبادي، ٢٠٠٢: ٢/٤٥٢):

قل للروافض بالمدينـة مالكم يقتادكم للذم كل سفيه
ما أصبح الحرم الشريفُ محرقاً إلا لسبكم الصحابة فيه

آثار الحريق:

أ - الخسائر البشرية:

و من الجدير بالذكر أن المؤرخين غفلوا عند تطرقهم إلى حادثة حريق المسجد النبوي الأولى عن الإشارة إلى عدد ضحايا الحريق، فلم يذكروا سوى وفاة أبي بكر بن أوحد الذي كان سبباً في الحريق عن غير قصد منه (المطري، ٢٠٠٥: ٨٢) و(الفيروزآبادي، ٢٠٠٢: ٢/٤٥١). و بالرغم من ذلك فالمؤرخون يشيرون إلى أن الحريق كان قبل أن ينام الناس، بل يذكرون أيضاً اجتماع أهل المدينة في المسجد للعمل على اخماد النار، (المقدسي، ٢٠٠٢ ٢٩٧) و(الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ١٩٣)، و هذا يدل على قلة عدد الضحايا في هذا الحريق.

ب- الخسائر المادية:

---

(٧) سيف الدين علي بن قزل: هو سيف الدين علي بن عمر بن قزل، شاعر من أمراء التركمان، تولى مصر، كان منشد الديوان في دمشق، تقلب في دواوين الإنشاء، توفي بدمشق، له ديوان في الشعر..(الزركلي، ٤: ٢٠٠٢/٣١٥).

(٨) معين الدين بن تولوا: هو معين الدين عثمان بن سعيد بن تولوا، شاعر و أديب مصر، و لد بتنيس عام ٦٠٥هـ /١٢٠٩م، سمع الحديث و تفقه، من شعره حينما أمر قاضي مصر بقطع أرزاق الشعراء من الصدقات سوى أبي الحسين الجزار:

تقدم القاضي لنوابه بقطع رزق البر و الفاجر
ووفر الجزار من بينهم فأعجب للطف التيس بالجازر

(الكتبي، ١٩٧٤: ٢/٤٤٠).

أتى الحريق على معظم محتويات المسجد النبوي، و من جملة ما احترق فيه المنبر الشريف، و يذكر المطري أن المنبر المذكور هو منبر وضع في عهد أحد الخلفاء العباسيين، وأنه ليس المنبر الذي " عمله معاوية ﷺ و جعل منبر النبي ﷺ فوقه " (المطري، ٢٠٠٥: ٨٣).

وقد احترق أيضاً كامل سقف المسجد النبوي، و يشير المطري إلى ذلك فيقول:" و استولى الحريق على جميع سقوفه حتى لم يبق فيه خشبة واحدة "(المطري، ٢٠٠٥: ٨٣). و كان من أبرز ما سلم من هذا الحريق هو القبة التي بناها الناصر لدين الله(٩) في صحن المسجد لحفظ ذخائره مثل المصحف العثماني وعدد من الصناديق التي تحوي الهدايا التي تقدم أوترسل له. (السمهودي، ٢٠٠٦: ٢/١٥٢) و(البرادعي، ١٩٧٢: ١١٦) و (عبد السلام هاشم، ١٩٨٢: ٨١).

موقف الخليفة العباسي من حريق المسجد النبوي:

بعد أن أفاق أهل المدينة النبوية من هول الصدمة التي حلت بمسجد النبي ﷺ و التي تعتبر كارثة حلّت بالعالم الإسلامي، أرسل أمير المدينة إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله بنباء هذا الحريق، فأرسل الخليفة في شهر ذي الحجة من عام ٦٥٤هـ قاضي القضاة سراج الدين النهرقلي و بصحبته المال و ومواد العمارة و الصناع لعمارة المسجد النبوي.(ابن الفوطي، ١٩٩٧: ٣٣٣).

و يروي ابن فرحون أن عمارة المسجد النبوي كانت في بداية عام ٦٥٥هـ، بعد انتهاء موسم الحج. و في أثناء العمارة كان يجب أن يعمل أهل المدينة على تنظيف المسجد من آثار الحريق إلا أنهم انتظروا رأي الخليفة العباسي بهذا الشأن، و لكن لم يصل اليهم رد من الخليفة نظراً؛ لأن عاصمة الخلافة كانت مهددة آنذاك بالغزو المغولي، و في بداية عام ٦٥٦هـ دخل المغول بغداد واسقطوا الخلافة العباسية.(ابن فرحون، ١٩٩٦: ١٩٣- ١٩٤).

موقف المماليك من حريق المسجد النبوي:

أرسل المنصور علي بن عز الدين أيبك (١٠) بعض مواد العمارة إلى المدينة المنورة للمساعدة في عمارة المسجد النبوي بالرغم من اضطراب الأوضاع السياسية في مصر، فقد كان الصراع على أشده بين الأمراء للسيطرة على مقاليد الدولة، وانتهى الصراع بخلع علي بن عز الدين و تولى الملك المظفر قطز (١١) السلطنة.(المطري، ٢٠٠٥: ٨٥).

---

(٩) الناصر لدين الله: الخليفة العباسي أبو العباس أحمد بن المستضئ بأمر الله الحسن بن المستنجد، بويع بالخلافة عام ٥٧٥هـ، و طالت أيامه حتى أنه لم يل الخلافة من بني العباس أطول مدة منه، فقد استمرت خلافته ٤٦ عاماً، يوصف بالدهاء، و أنه شديد الاهتمام بالملك، لا يخفى عليه كبير شيء من أمور رعيته. (الزركلي، ٢٠٠٢: ١/١١٠)

(١٠) علي بن أيبك: الملك المنصور نور الدين علي بن أيبك التركماني الصالحي، أحد ملوك دولة المماليك البحرية، ولي بعد مقتل أبيه عام ٦٥٦هـ، وهو صغير، خلع عام ٦٥٧هـ، وأرسل مع أمه إلى دمياط، فأقام في برج السلسلة إلى أن مات. (الزركلي، ٢٠٠٢: ٤/٢٦٥)

(١١) المظفر قطز: المظفر سيف الدين قطز بن عبدالله المعزي، يقال أن اسمه محمود بن ممدود، وأنه ابن أخت خوارزم شاه جلال الدين، تولى السلطنة بعد خلع المنصور علي، هزم

لم يستمر قطز في الحكم إلا عدة أشهر فقط، فقد قُتل بعد معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ، وقد كانت عمارة المسجد النبوي مستمرة في عهده، و أنجز خلالها الجزء الممتد من باب السلام إلى باب الرحمة.(السمهودي، ٢: ١٥٤/٢٠٠٦- ١٥٥).

اهتم الظاهر بيبرس بإتمام عمارة المسجد النبوي، فجهز في عام ٦٦٢هـ "الأخشاب و الحديد و الرصاص، ومن الصناع ثلاثة و خمسين صانعًا ومايمونهم " (السمهودي، ٢: ١٥٤/٢٠٠٦- ١٥٥)، و كان كلما احتاج المسجد لنفقات أو مواد للعمارة سارع بإرسالها، و قد بادر بإرسال مواد العمارة عام ٦٥٨هـ مع الركب الشامي. و في عهده تمت عمارة كامل سقف المسجد النبوي.(المطري، ٨٦: ٢٠٠٥) و(الفيروزآبادي، ١٩٩٦: ٤٥٤/٢).

موقف الملك المظفر يوسف من حريق المسجد النبوي:

كانت دولة بني رسول في اليمن تحاول بشكل أو بآخر فرض سلطتها على الحجاز، لذلك فما إن احترق المسجد النبوي، حتى بادر الملك المظفر يوسف(١٢) بإرسال مواد العمارة إلى المدينة النبوية (الزركلي، ٢٠٠٢: ١٥٣/٢)، كما أرسل - عام ٦٥٦هـ - منبراً كان قد أمر بصنعه، فوضع هذا المنبر في المسجد عوضاً عن المنبر المحترق، مستغلاً الأحداث في العراق بعد سقوط بغداد بيد المغول ثم مقتل الخليفة العباسي، و مستغلاً كذلك الصراعات في مصر على العرش بعد خلع الملك المنصور علي بن أيبك و استمر المنبر في موضعه يخطب عليه مدة عشر سنوات حتى أمر الظاهر بيبرس باستبداله بمنبر آخر من صنع أبو بكر النجار عام ٦٦٦هـ. (المطري، ٢٠٠٥: ٨٦) و(ابن فرحون، ١٩٩٦: ١٦٨) و (الشهري، ٢٢٤: ٢٠٠١).

حريق المسجد النبوي الثاني:

تعرض المسجد النبوي للمرة الثانية في تاريخه إلى كارثة تردد صداها في أرجاء العالم الإسلامي و كان ذلك الحريق في الثالث عشر من شهر رمضان عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م. و يذكر المؤرخون أنه كان في أول الثلث الأخير من الليل. (السخاوي، ٢٠٠٩: ١٣٤/١) و (السمهودي، ٢: ١٧٥/٢٠٠٦).

سبب الحريق الثاني:

و يروي المؤرخون عن سبب هذا الحريق أن المؤذنين قد اعتلوا المنارات يهللون قبيل صلاة الفجر، وكان شمس الدين بن الخطيب(١٣) في المنارة الشرقية، وبدأ

المغول في معركة عين جالوت، و بينما هو عائد إلى مصر، تقدم بيبرس و معه عدد من أمراء الجيش، وقتلوه عام ٦٥٨ هـ. (الذهبي، ١٩٨٤: ٢٣/٢٠٠- ٢٠١) و (الزركلي، ٢٠٠٢: ٥/٢٠٠- ٢٠١).

(١٢) الملك المظفر: المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول التركماني، ثاني ملوك الدولة الرسولية، ولد بمكة، ولي بعد مقتل أبيه عام ٦٤٧ هـ، و قامت في أيامه فتن و حروب، فخرج منها ظافراً، له عدد من المؤلفات، وكان يحب العلماء، توفي بقلعة تعز. (الزركلي، ٢٠٠٢: ٢٤٣/٨).

(١٣) ابن الخطيب: أبو السعادات شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد المصري الاصل المدني الشافعي، ولد عام ٨٣٧هـ بالمدينة المنورة، و نشأ بها، فحفظ القرآن و المنهاج و الألفية

بالتهليل، فأصابت هلال المنارة الشرقية صاعقة، انشق على إثرها رأس المنارة، وفُقد صوت ابن الخطيب، فجزع من معه من المؤذنين في المنارات الأخرى، و بدؤوا في مناداته، فلم يجب، فصعد بعض هؤلاء إلى المنارة، ووجدوه ميتاً، وامتدت النار، و أصابت السقف العلوي للمسجد، وكان المسجد خالياً من المصلين، ففتح خُدام المسجد الأبواب و أخذوا في مناداة أمير المدينة قسيطل بن زهير الجمازي(١٤) و أهلها للمساهمة في إطفاء الحريق، و تسابق المتطوعون إلى المسجد، لإخماد النار، و لكنهم لم يستطيعوا إطفاءها، فحاولوا هدم ما بقي من السقف قبل أن تصل إليه النار، فتزداد اشتعالاً، و لكنهم لم يفلحوا في ذلك أيضا و احترق عدد من المتطوعين، بينما كانوا يحاولون إخماد النار، و حاول آخرون النزول من أعلى المسجد بالحبال إلى المنازل المجاورة، فسقطوا، وهلكوا. (السمهودي، ٢: ٢٠٠٦/١٧٥) و (عبد السلام هاشم، ٨٣: ١٩٨٢).

و يذكر بعض المؤرخين — و إن كان في ذلك شيء من المبالغة - أن الصاعقة نزلت أولاً على جبل أحد ثم سقطت منها شرارة و نزلت على المئذنة الشرقية. (الشهري، ٢٠٠١: ٣١٩).

وقال الكازروني(١٥) في هذا الحريق (السخاوي، ١: ٢٠٠٩/٤٥٣):

لم أنس إذ زارت بجنح الدجى سافرة عن ثغرها بارقة

نادى رقيب الوصل في إثرها يا قوم قد أنذرتكم صاعقة

و يظهر أن الأسباب التي أدت إلى صعوبة السيطرة على الحريق الثاني مشابهة إلى حد ما للأسباب في الحريق الأول و يمكن تلخيص تلك الأسباب في:

١- ارتفاع منارات المسجد عن بقية منازل المدينة. (الشهري، ٢٠٠١: ٣٢٠).

٢- قصور الإمكانيات فقد كان أهل المدينة يجلبون الماء من الميضأة أو البيوت المجاورة (عبد الباسط بدر، ٢: ١٩٩٣/٣١٣).

٣- يوجد في المسجد عدد من القناديل التي تحوي الزيت استعداداً لإسراجها، مما أدى إلى سرعة انتشار النار في المسجد. (الشهري، ٣٢٠: ٢٠٠١).

٤- يبدو أن الجو كان ممطراً كثير الصواعق مما أعاق أهل المدينة في مهمتهم.(السمهودي، ٢٠٠٦: ٢/١٧٥).

٥- امتلاء المسجد بالدخان الكثيف، (السمهودي، ٢: ٢٠٠٦/١٧٥) و (عبد الباسط بدر، ١٩٩٣: ٣١٣) و الذي لم يستطع المتطوعون بسببه سوى الانسحاب من المسجد.

و يذهب السمهودي في هذا الحريق إلى ما ذهب إليه القطب القسطلاني في الحريق الأول فالسمهودي يعتبر أن

و غيرها، كان السخاوي أحد شيوخه، حيث اجتمع به في مصر، و أخذ عنه، و كان ذكياً فاضلاً فقيهاً. (السخاوي: د.ت: ٧/٩٣- ٩٤).

(١٤) قسيطل بن زهير: هو قسيطل بن زهير بن سليمان بن هبة بن جماز الحسيني، ولي إمارة المدينة بعد عزل ضيغم بن خشرم عام ٨٨٣ هـ، بمعاونة محمد بن بركات، و استمر في الإمارة إلى عام ٨٨٧ هـ. (السخاوي: ٢٠٠٩: ٥/٤٤٣).

(١٥)الكازروني: عفيف الدين، أحمد بن مسدد بن محمد بن عبد العزيز، متفقه شافعي، له معرفة بالحديث، كان تلميذاً السخاوي، له كتاب "الحدائق الغوالي في قباء و العوالي "، مولده ووفاته بالمدينة. (الزركلي، ٢٠٠٢: ١/٢٥٧).

هذا الحريق عبرة و موعظة، فهو يرى أن أعمال الأمة تُعرض على الرسول ﷺ، فلما ساءت تلك الأعمال اقتضت حكمة الله، أن يعرض الأمة لتلك الكارثة المفجعة ليحصل بها الاتعاظ و الارتداع عن الأعمال التي لا يرضاها سبحانه. (السمهودي، ٢٠٠٦: ٢/١٧٨).

آثار الحريق الثاني:

أ- الخسائر البشرية:

سبب حريق المسجد النبوي خسائر بشرية، وقد ذكر السمهودي أن من مات بسبب الحريق يقدرون " ببضع عشرة نفساً "(السمهودي، ٢٠٠٦: ٢/١٧٥) إضافة إلى المصابين في تلك الحادثة.

و قد ترجم المؤرخون لعدد من ضحايا هذا الحريق، ومن أبرز هؤلاء: ابن الخطيب مؤذن المسجد النبوي الذي توفي بينما كان يهلل في المنارة الشرقية قبيل الحريق. كما توفي أيضاً ابن ظهيرة الزبيدي(١٦)، والعوفي(١٧)، و عدد من خدام المسجد النبوي و الفقراء من أهل المدينة. و أصيب كذلك في الحريق المذكور الكازورني، و أشرف على الهلاك، و بقي متوعكاً حتى وفاته بعد عام واحد من الحريق، و قد ألف في فترة مرضه كتاباً عن الحريق سماه " ورود النعم و صدور النقم ".

و يظهر لي أن خلو المسجد من المصلين عند نزول الصاعقه و بداية الحريق، قلل من الخسائر البشرية، فلم يكن بالمسجد آنذاك سوى المؤذنين و خدام المسجد النبوي.

ب- الخسائر المادية:

امتد الحريق إلى كل ما في المسجد فيما عدا الحجرة الشريفة، و الأساطين الملاصقة للحجرة، و القبة التي في صحن المسجد(السمهودي، ٢٠٠٦: ٢/١٧٧).

و قد احترق في جملة ما احترق منبر المسجد، و قد بنى أهل المدينة منبراً من الآجر بدلاً من المنبر المحترق، و استبدل بمنبر من الرخام بعثه الأشرف قايتباي، أما المنبر المحترق فهو المنبر الذي أرسله المؤيد شيخ [١٨]عام ٨٢٢هـ/١٤١٨م، (السمهودي، ٢٠٠٦: ٢/١٣١) كما احترقت المقصورة الخشبية التي كانت حول الحجرة الشريفة، وجميع الحواصل والأبواب، و سقط ثلثا المنارة الرئيسة. (السمهودي، ٢٠٠٦: ٢/١٧٧).

و احترقت الكتب التي كانت توضع في الخلوة بمؤخرة المسجد، ومنها مكتبة قيمة للمؤرخ السمهودي تضم

---

(١٦) ابن ظهيرة الزبيدي: هو عبد الغني بن عبدالله بن أبي بكر بن ظهيرة القرشي الزبيدي المكي الشافعي، ولد عام ٨٢٦ هـ في زبيد، ثم انتقل منها إلى مكة، ثم زار المدينة المنورة، وجاور بها. (السخاوي: د.ت: ٤/٢٥١).

(١٧) العوفي: هو محمد بن محمد بن عبدالله المدني الشافعي، ولد بالمدينة عام ٨٤٠ هـ، و هو أحد فراشي المسجد النبوي و مسجد قباء، برع في العربية و الفرائض و الحساب و شارك في الفقه و غيره. (السخاوي: د.ت: ٩/ ١٢٩-١٣٠).

(١٨) الملك المؤيد شيخ: أبو النصر من ملوك الجراكسة بمصر و الشام، من مماليك الظاهر برقوق، كان يعرف بشيخ المجنون، تولى إمارة الحج عام ٨٠١هـ /١٣٩٨ م، ثم نائباً لطرابلس، فالشام، أسره تيمورلنك، ثم سجنه الناصر، فقتل الناصر بعد خروجه، و أصبح أتابكاً للعسكر، فمدبر للملكة، ثم تولى السلطنة ذاتها و تلقب بالملك المؤيد. (الزركلي، ٢٠٠٢: ٣/١٨٢).

حوالي ثلاثمائة كتاب، كما احترق أصل كتابه المسمى " الوفا، بما يجب لحضرة المصطفى "، و لحسن الحظ أنه قد اختصر كتابه هذا، وإن المختصر كان بحوزته في أثناء الحريق، فألحق السمهودي بعد ذلك بهذا الكتاب المختصر قصة الحريق. (السمهودي، ٢٠٠٦: ١٧٦/٢).

وكانت تلك الخلوة تحوي كتب أمير المدينة قسيطل بن زهير، فاحترقت في الحريق المذكور. (عبد السلام هاشم، ١٩٨٢: ٨٣).

ويروي السمهودي أن بعض المتطوعين من أهل المدينة قد حاولوا حمل " بعض خزائن الكتب من تحت سقف المسجد إلى صحنه فأصابها الشرر فأحرقها ". (السمهودي، ٢٠٠٦: ١٧٦/٢).

موقف المماليك من حريق المسجد النبوي الثاني:

أبلغ أهل المدينة – في اليوم السادس عشر من شهر رمضان – الأشرف قايتباي(١٩) أمر الحريق في المسجد النبوي، ويروى أن السلطان عندما بلغه خبر الحريق بكى بكاءً شديداً وبكى كل من حضر معه، (الزركلي، ٢٠٠٢: ١٧٧/٢) ورأى أهل المدينة أن من واجبهم القيام بتنظيف المسجد من آثار الحريق إلا أن ناظر المسجد النبوي رفض المباشرة بذلك حتى تصله الأوامر من السلطان قايتباي، "ولكنه لم يلبث أن اقتنع بعد فترة أن ما أمر به، فيه إجحاف بحق المصلين و الزائرين و المجاورين الذين حرموا من ثواب الصلاة و الاعتكاف في شهر رمضان المبارك في المسجد الشريف" (الشهري، ٢٠٠١: ٣٢٣)، فقام أهل المدينة بنقل آثار الحريق إلى مؤخرة المسجد.

وذلك قبل القيام بتنظيف مؤخرة المسجد من آثار الحريق حيث يقول " و في أثناء شوال أخبر قاضي المالكية شمس الدين السخاوي حفظه الله تعالى أنه رأى في النوم من يقول له: أطفئوا النار من الحجرة الشريفة، يعني الموضع الذي تركوا تنظيفه حولها، فتفقدوا ذلك فوجدوا النار في ثمانية مواضع، فأطفئوا ذلك، ثم رأوا أن مادة هذه النار لا تنقطع إلا بتنظيف الردم " (السمهودي، ٢٠٠٦: ١٧٧/٢- ١٧٨).

ووصلت في تلك الفترة أوامر الأشرف قايتباي بتنظيف المسجد النبوي، أمر سنقر الجمالي (٢٠)- الذي كان في تلك الفترة يعمل على عمارة المسجد الحرام أن يتجه إلى المدينة. و صحب سنقر أكثر من " مائة صانع من البنائين و النجارين و النشارين والدهانين و الحجارين و النحاتين و الحدادين و المرخمين و غيرهم "، وقد رافقه إلى المدينة أخوه شاهين الشجاعي. ثم أرسل ابن

(١٩) الأشرف قايتباي: أبو النصر، سيف الدين، قايتباي المحمودي الأشرفي ثم الظاهري، من ملوك الجراكسة. كان مملوكاً اشتراه الأشرف برسباي بمصر صغيراً عام ٨٣٩ هـ، تولى السلطنة بعد خلع تمربغا عام ٨٧٢ هـ، و توفي عام ٩٠١ هـ. (الزركلي، ٢٠٠٢: ١٨٨/٥).

(٢٠) سنقر الجمالي: أبو السعادات، الرومي، ولد عام ٨٣٥هـ، أسره المسلمون هو و أخيه شاهين و هما طفلان، و جيء بهما إلى انطاكية، فاشتراهما بعض التجار، و جلبهما إلى حلب ثم إلى مصر، و صار إلى الجمال الذي نسبا إليه، و كان لهما دور كبير في عمارة المسجد الحرام و المسجد النبوي بالإضافة إلى عدد من المساجد الأخرى في مكة و المدينة. (السخاوي، ٢٠٠٩: ٢٤٢/٣).

الزمن(٢١) – الذي تولى عمارة المسجد النبوي قبيل الحريق – و بصحبته أكثر من ثلاثمائة من الصناع و الحمّالين و المبيضين و السباكين و الجباسين للعمل على عمارة المسجد النبوي. (السمهودي، ٢٠٠٦ : ١٩٧/٢).

و استمر العمل على عمارة المسجد النبوي حتى آواخر شهر رمضان عام ٨٨٨هـ.(عبد الباسط بدر، ٢ : ١٩٩٣/٣١٧) و قد قام الأشرف قايتباي في هذه العمارة ببناء مئذنة باب الرحمة، ووسع المحراب العثماني، كما أقام قبة على رؤوس الأساطين فيما حوله، و قبة فوق سقف الحجرة النبوية، وبنى عليها قبة أخرى.(عبد السلام هاشم، ١٩٨٢ : ٨٣) و أحدث مقصورة من حديد للحجرة النبوية مازالت قائمة حتى الآن.(السخاوي، ١٩٩٥ : ٩٣٩/٣).

قائمة المصادر و المراجع

بدر، عبد الباسط. ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م *التاريخ الشامل للمدينة المنورة*. المدينة المنورة.

البرادعي، أحمد بن محمد. ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م *المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي*. من نشر المؤلف. د.م.

حاجي خليفه، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (١٠٦٧هـ). د.ت *كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون*. تحقيق: محمد شرف الدين و رفعت الكليسي. د.ط. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

حافظ، عبد السلام هاشم. ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م *المدينة المنورة في التاريخ* دراسة شاملة. ط٣. منشورات نادي المدينة المنورة الادبي. المدينة المنورة.

دهمان، محمد أحمد. ١٩٩٠م معجم *الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي*.دار الفكر. بيروت- دمشق.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ). ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام*. تحقيق: عمر تدمري. دار الكتاب العربي. بيروت.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ). ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م *سير أعلام النبلاء*. تحقيق: شعيب الأرنؤوط و أكرم الوي. ط٢. مؤسسة الرسالة. بيروت.

الزركلي، خير الدين بن محمود الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ). ٢٠٠٢م *الأعلام*.ط ١٥. دار العلم للملايين. بيروت.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن المصري المدني (ت٩٠٢هـ).١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م *التحفة اللطيفة في المدينة الشريفة*. تحقيق: صفوان داوودي و آخرون. مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة. المدينة المنورة.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن المصري المدني (ت٩٠٢هـ). د.ت *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*. د.ط. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت.

(٢١)ابن الزمن: هو الخواجا شمس الدين محمد بن عمر بن الزمن، المشهور بالشمس بن الزمن، و لد بدمشق، عمل بالتجارة، ثم انتقل إلى مصر، عينه الأشرف قايتباي على عمارة الحرمين الشريفين، توفي بمكة المكرمة عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢. (السخاوي، د.ت: ٢٦٢/٨).

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن المصري المدني (ت٩٠٢هـ). ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م *وجيز الكلام في الذيل على دول الاسلام*. تحقيق: بشار معروف و آخرون. مؤسسة الرسالة. بيروت.

السمهودي، نور الدين علي بن أحمد(ت ٩١١هـ).٢٠٠٦م *وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى*. تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ. دار الكتب العلمية. بيروت.

أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الشافعي (ت ٦٦٥هـ). ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م *الذيل على الروضتين*. دار الكتب العلمية. بيروت.

الشهري، محمد هزاع.٢٠٠٢ م *عمارة المسجد النبوي منذ إنشائه حتى نهاية العصر المملوكي*. الناشر مكتبة القاهرة للكتاب. القاهرة.

ابن فرحون، أبو محمد عبدالله بن محمد المالكي (ت ٧٦٩ هـ) ١٣١٧هـ- ١٩٩٦م *نصيحة المشاور و تعزية المجاور*. باعتناء حسين شكري. دار المدينة المنورة. المدينة المنورة.

ابن الفوطي، عبدالرزاق بن أحمد الشيباني (ت ٧٢٣هـ).١٩٩٧م *الحوادث الجامعة و التجارب النافعة في المئة السابعة*.تحقيق: بشار معروف و عماد عبد السلام. دار الغرب الإسلامي.بيروت.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ).١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م *المغانم المطابة في معالم طابة*. تحقيق: سليمان العايد و آخرون. مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة. المدينة المنورة.

الكتبي، محمد بن شاكر(٧٦٤هـ).١٩٧٤م *فوات الوفيات*. تحقيق: إحسان عباس.دار صادر.بيروت.

المطري: جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤١هـ). ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥ *التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة*.تحقيق: سليمان الرحيلي.د.ط. دارة الملك عبد العزيز. الرياض.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر(ت ٧٤٩هـ). ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م *تتمة المختصر في أخبار البشر*. د.ط. دار الكتب العلمية. بيروت.

اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد اليمني المكي (ت ٧٦٨ هـ) ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م *مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان*. دار الكتب العلمية. بيروت.